# فتنة الزنج
## ورثاء البصرة في شعر ابن الرومي

للأستاذ محمود الشرقاوي

— ٢ —

### خلاصة

جئنا في مقالنا الأول عن فتنة الزنج[1] على مبدأ ظهور صاحب الزنج وبدء فتنته واستيلائه على العبيد والزنوج وخروجه بهم على الولاة حتى دخل بهم البصرة وخربها في شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين . وكان دخوله إليها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت منه ، فأباحها صاحب الزنج لأتباعه ليلة ويومين يفعلون بها وبأهلها ما شاءوا .

### رثاء ابن الرومي

بدأ ابن الرومي قصيدته في وصف هذه الحال بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

أيّ يوم من بعد ما حل بالبصـ ... ـرة ما حل من هنات عظام ؟
أي يوم من بعد ما انتهك الزنـ ... ـج جهاراً محارم الإسلام ؟
إن هـذا من الأمور لأمر ... كاد ألا يقوم في الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومي أن يوحي إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام

ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط في قلب سامعه وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً في بيت واحد :

أقدم الخائن اللعين عليهـا ... ـ وعلى الله ـ أيّمـا إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى ما في نفسه من الحزن واللهفة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسي عليك أيتها البصـ ... ـرة لهفاً كثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ ... ـرات لهفاً يمضي بمضي إبهـامي
لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ ... ـلام لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ ... ـدان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعك المتفانـ ... ـي لهف نفسي لعزك المستضام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومي قارئه لأن يقرأ وصفه القادم لما حل بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والغضب الذي أوحاه إلينا في مطلع قصيدته . ثم يقول :

بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللي ... ـل إذا راح مدلهم الظلام

(١) عدد ٣٩٧ من الرسالة

---

يرتفع به الشك وينجلي به الحق ، وتسهل معه دراسة علم الكلام. وهناك أيضاً مسألة أخرى أعدها هامة من الطراز الأول ، أعني بها تأريخ الأزهر ببيان الرسالة التي أنشئ أولاً لأجلها ، ومدى تطور هذه الرسالة على مدى القرون ، وما يجب أن تكون عليه في المستقبل ، وتأريخ رجالاته الأعلام حتى تصل للعصر الحاضر . إن من أعجب العجب أن يؤرخ مفكرى الإسلام كثير من المستشرقين ومن بينهم العالم الفرنسي كارادي فو Carra de Vaux في خمسة مجلدات تشمل ما يزيد على الألفين من الصفحات وأن نجد في المعجمات الفرنسية ترجمات لمن يجب أن يكون لهم ذكر في التاريخ، بينما كبار من خرجهم الأزهر ، ومن لهم علينا أكبر المنة — بما تدرس من مؤلفاتهم وبما أفادوا العلم في النواحي المختلفة — أصبحوا منسيين منا ولا نجد السبيل لتراجم لهم إن أردناها ! هـذا وذاك من الأعمال جدير بأن يستأثر بكثير من جهود من يرى في نفسه الكفاية منا حتى يكون لنا شيء نباهي به في العيد الألفي للأزهر ، وأرجو أن يكون منا غير بعيد

٣ — الغاية التي أستشرف إليها هي إذاً المساهمة — في غير تثريب على الغير من كبار الشيوخ الذين أدوا ما طلب منهم كما فهموه — في تهيئة بيئة علمية ينظر فيها الطالب بعقله لا بعقل أحد ممن سبقوه ، ويرى فيها الرأي لأن الدليل يعضده لا لأن الغزالي أو مثله ذهب إليه . بذلك يصح لنا وجه الحكم في العداء الذي زعموه بين الدين والفلسفة ، ويسهل الإقناع والاقتناع ، ونصحح كثيراً من قضايا الماضي وأحكامه ، ونبني على ماض غير مدخول ، وأساس متين لا وهن فيه . وإلى اللقاء القريب — إن تفضلت الرسالة الغراء — إن شاء الله تعالى

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

أيّ هول رأوا به أي هول ... حقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال ، وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً ... تَرِب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مغدّى في أهله أسلموه ... حين لم يحمه ، هنالك ، حامي
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة - بخاتم الله - بكر ... فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام
من رآهن في المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن في المقاسم - وسط الزنج - يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتّخذن إماء ... بعد مُلك الأمام والخدام

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومي قد رأى فيها القارئ كيف دخل الزنج على البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل . وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم إلينا هذه الصور الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل في قوة تصويرها . فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرابه وطعامه ، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيوفهم وتلقت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه صريعاً قد عفّر التراب خده بين كرام غيره ، معفرة خدودهم . ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضّوهن جهرة بغير اكتتام . ثم ساقوهن إلى السبي يفرقونهن بينهم ويقتسمونهن مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام

ثم يعود بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان إلى شعوره النفسي يوحي به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أضرم القلبَ أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... أوجعتني مرارة الأرغام

ثم يعرج إلى ذكر صور عجلة بعض الأجلاء عن بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح وهي قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعماد أسواقها وتلك الفلك التي تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الأحكام من بنيانها ، وكيف استحال هذا كله — بفتنة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيد وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفي عليها الرياح :

عرّجا صاحبيّ بالبصرة الزهـ ... ـراء تعريج مدنف ذي سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها ... لسؤال — ومن لها بكلام ... ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ؟ ... أين ذاك البنيان ذو الأحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام
سلط البشق[1] والحريق عليها ... فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها ، فهي تفر ... لا ترى العين بين تلك الأكام
غير أيد وأرجل بائنات ... نبذت ، بينهن أفلاقُ هام
ووجوه قد رملتها دماء ... بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطنت بالهوان والذل قسرا ... بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تسفي الرياح عليها ... جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات ... باديات الثغور ، لا لابتسام ... !

ولا شك في أن القارئ يشعر بتلك القدرة الفائقة التي صور بها ابن الرومي ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التي أضحت تلالاً ، ومشهد تلك الأيدي والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام ، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدا منها الثغر وبرزت النواجذ ولكن لا لتبتسم ... !

ثم ينتقل ابن الرومي بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل ألما بساحة المسجد الجا ... مع إن كنتما ذوي إلمام
فاسألاه — ولا جواب لديه — ... أين عباده الطوال القيام ... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه ... دهرهم في تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسان وجوها ؟ ... أين أشياخه أولو الأحلام

(١) في القاموس [ بثق النهر بثقاً وبثقا وتبثاقاً كسر شطه ينبثق الماء ] ولعل صاحب الزنج كان قد كسر « شط العرب » الذي تقع عليه البصرة ، فتصدق صورة ابن الرومي عن حصارها بالماء والنار .

## تحريض وإثارة

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومى قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية الصادقة عن وصف ما حل بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهييج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التى قصد إليها ابن الرومى ، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة فى التحريض والإثارة حين ذكر ابن الرومى « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نسقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمى - بغير حق - إماماً ... لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذى يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومى دعوة صريحة فى هذه القطعة التى ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام

أى خطب ، وأى رزء جليل ... نالنا فى أولئك الأعمام
كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد ... وفقيه فى دينه علام
وانداى على التخلف عنهم ! ... وقليل عنهم غناء ندامى
وأحيائى منهم - إذا ما التقينا ... وهم - عند حاكم الحكام
أى عذر لنا ؟ وأى جواب ؟ ... حين تدعى على رؤوس الأنام :
يا عبادى ! أما غضبتم لوجهى ... ذى الجلال العظيم والإكرام ؟
أخذلتم إخوانكم وقعدتم ... عنهم - ويحكم - قعود اللئام ؟
كيف لم تعطفوا على أخوات ... فى حبال العبيد من آل حام ؟
لم تثاروا لغيرتى ، فتركتم ... حرماتى لمن أحل حرامى
إن من لم يغر على حرماتى ... غير كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً ... وهو - من دون حرمة - لا يحامى

ثم يقدم لنا ابن الرومى بعد هذا التحريض القوى هذه الصورة البارعة عن خصومة تخيل أنها واقعة بينه وبين النبى عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثأر لهم :

وأحيائى من النبى إذا ما ... لامنى فيهم أشد الملام !
وانقطاعى إذا هم خاصمونى ... وتولى النبى عنهم خصامى !
مثلوا قوله لكم - أيها النا ... س - إذا لامكم مع اللوام
« أمتى أين كنتم إذ دعتكم ... حرة من كرائم الأقوام ...؟
صرخت : يا محمداه ...! فهلا ... قام فيها رعاة حتى مقامى ...!
لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا ... كان حى أجابها عن عظامى ! »

وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه فى الأبيات الأول إلى خطاب من يحرضهم حين بدأ يصف خصومة النبى عن قتلى الزنج فقال : « مثلوا قوله لكم أيها الناس »

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس إلى الدعوة الصريحة إلى الثأر من صاحب الزنج فى هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى نكتفى منها بهذه الأبيات :

انفروا - أيها الكرام - خفافاً ... وثقالاً إلى العبيد اللئام
أبرموا أمرهم وأنتم نيام ، ... سوءة سوءة لنوم النيام
صدقوا الظن إخوة أملوكم ... ورجوكم لنوبة الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم ... مثل رد الأرواح فى الأجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر ... فأقروا عيونهم بانتقام
أنقذوا سبيهم - وقل لهم ذا ... ك حفاظاً ورعية للذمام
عارهم لازم لكم ، أيها النا ... س ، لأن الأديان كالأرحام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلـ ... ـد فأنتم فى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد ... نى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

* * *

هكذا ينتهى ابن الرومى من قصيدته فى رثاء البصرة وفيما أصابها وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم

وأعتقد أن القارئ يجد أنى لم أكن مغالياً حين قلت فى ختام مقالى الأول عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومى إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع الشعر العربى كله

وأزيد على ذلك اليوم أن ابن الرومى كان فى تحريضه الناس وتهييجه لهم ، ماكراً خبيثاً وقوياً عارماً شديد التأثير ، يكاد شعره فى ذلك يدفعنا نحن الآن - أحد عشر قرناً - إلى الثورة والهياج

محمود الشرقاوى